دور العلوم الكونية في تأييد الدين الحق

أ. صالح عسكر

لقد احتل العلم في عصرنا هذا مرتبة متقدمة في أولويات الأمم واهتماماتها. وفرض نفسه كموجه لحياة الأفراد والمجتمعات. وبات مقياسا للسبق والفضل. ولقد عانت المجتمعات الغربية المسيحية التي تقود اليوم القاطرة الأولى في وقت ما من التصادم بين العلم ومقررات الكنيسة لم تستطع أن تتخلص منه إلا بإنكار الدين إنكارا كاملا في مرحلة أولى. ثم بتحجيم دوره وتقزيمه بعد انحسار المد الإلحادي المنافي للفطرة الإنسانية في مرحلة ثانية. غير أن المسلمين ظلوا يزعمون أن هذا التصادم بين العلم والدين راجع إلى التحريفات التي أدخلها الناس عليه. وأنه لا تصادم بين العلم الحق والدين الحق. بدليل أن دينهم الذي عصم من التبديل والتحريف يتوافق ويتطابق معه العلم تطابقا كاملا. بل هو من مؤيداته وشواهد صدقه.

فما مدى صحة هذه الدعوى ؟ وما هو الدور الذي يمكن أن يؤديه العلم في الشهادة على دين ما تأييدا ونقضا؟ وهل ما يتناقل من تطابق بعض المعاني الإشارية في القرآن والسنة مع حوادث الكشوف العلمية يخضع لاستنباط علمي دقيق أو هو أشياء افتراضية؟

لقد استوقفتني منذ أمد بعيد مسألة تكليف الحق -سبحانه وتعالى- لجميع البشر بالإيمان بمحمد ﷺ والإذعان لرسالته. مع ما قد يحول بين هؤلاء الناس وبين إدراك الحجج والبراهين المصدقة له -عليه الصلاة والسلام- من عوائق اللغة. والعجز عن إدراك روعة البيان الواقع في نصوص القرآن الذي هو المعجزة التي أيد بها وتُحدي الناس أن يأتوا بما يماثلها. غير أن هذا العصر قد طالعنا بشيء جديد نتناوله في هذه الدراسة. كشف عن وجه آخر من وجوه التأييد للرسالة الخاتمة. وهو ما يحلو للبعض أن يسميه "الإعجاز العلمي في القرآن والسنة". وإن كان موضوع هذه الصفحات يتناول شيئا أوسع قليلا من مجرد مطابقة الحقائق العلمية بإشارات النصوص القرآنية. متمثلا في تأييد العلم لحقائق الدين الحق بمعناها المطلق.

وقبل الخوض في ذلك. لا بد من أن نطرح سؤالا لو أجيب عنه بالسلب كان طرح هذا الموضوع شيئا من اللغو. أو أمر غير ذي معنى. وهو: ما هي قيمة الدور الذي قد يلعبه العلم في إقناع الناس بصدق الرسالة الخاتمة؟

العلم والإقناع بالرسالة الخاتمة:

منذ ما يقل قليلا عن عشرين سنة، ولم تكن وسائل الإعلام والاتصال قد تطورت بالصورة التي هي عليها اليوم، ولا انتقال المعلومات بالسلاسة التي أضحت عليها الآن. كُتب لنا ونحن حديثو السن أن نطلع على شريط يحمل عنوان " إنه الحق ". وقد كان هذا الشريط يعرض ملخصا عن جزء من أشغال المؤتمر الطبي السادس بالرياض والذي كان يتناول الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. وقد قامت فكرة هذا البحث الذي تناوله المؤتمر على دعوة أساتذة مختصين في مختلف العلوم الكونية وتكليفهم بدراسات تطابق بين أحدث ما تم التوصل إليه في اختصاصاتهم وبين ما نص عليه القرآن والسنة. وقد كانت النتيجة أن بعضهم أشهر إسلامه، وبعضهم أضاف هذه المقررات إلى كتاباته، وبعضهم دعا إلى توظيف منهج الوصف القرآني لمراحل تطور الكائن البشري واستبدال الطريقة المعتمدة في التدريس به. وأقلهم إقرارا من أقر أن هذا لا يمكن أن يجيء إلى محمد صلى الله عليه وسلم الأمي إلا من مصدر سماوي.

المهم أننا وجدنا جملة من أكابر المختصين في العلوم الكونية يقرون بصورة أو أخرى بنوع من التطابق بين حقائق لم يصل إليها العلم إلا حديثا وبين كتاب تلاه على الناس رجل أمي منذ ما يزيد عن ألف وأربعمائة سنة. وقد كان ذلك يطرح سؤالا ملحا هو: ماذا بعد هذا الإقرار؟ وهل يدفع ذلك صاحبه إلى أن يشهد شهادة الحق ويعلن أن القرآن هو الحق والإسلام هو الدين الذي يجب على الناس اتباعه؟

شخصيا لازمني هذا السؤال سنوات، فإننا لم نسمع من أولئك المقرين بالتطابق بين مقررات القرآن والسنة وحقائق العلم من أعلن إسلامه إلا البروفسور التايلاندي "تاجاتات تاجسون" أما الباقون فلم يتضح موقفهم تجاه هذه المسألة .. ثم إنه جاءني بعض الإجابة على لسان البروفسور الكندي " كيث ل مور " حين قال بعد ذلك بسنوات في مؤتمر عقد بروسيا حول الإعجاز العلمي في القرآن والسنة أيضا: " إني أعلم أن الإسلام هو الدين الحق، أنا اليوم مسيحي، ولكن لا تستغربوا إذا سمعتم غدا أني قد صرت مسلما ".

إذن فالأمر يتجاوز حدود الاقتناع العقلي إلى التغلب على نوازع نفسية أخرى. وقد كان على من تخطى العقبة الأولى وهي حاجز الاقتناع العقلي، أن يتجاوز عقبة ثانية ترتبط بالجانب النفسي أكثر. غير أن ما يهمنا هو أن هذه الحقائق العلمية إذ تتطابق مع ما

جاءت به الرسالة الخاتمة تقيم الحجة العقلية على صدقها ويبقى على صاحبها أن يتجاوز العقبة الأخرى بوسيلة أخرى أو لا يتجاوزها فليس هذا موضع طرح ذلك . وقد أكد لي هذا الأمر بعد ذلك بسنوات أحد المعتنقين للإسلام، وكنت مهتما بالأسباب التي أوصلتهم إلى معرفة الإسلام ثم اعتناقه. واستمعت إلى تصريحات كثير منهم وقرأت طرفا من كتاباتهم. ثم كتب لي أن ألتقي بعضا منهم، وقد لاحظت أن شيئا كان يجمع جميعهم على اختلاف بلدانهم وأوطانهم وألسنتهم وألوانهم مع كون أغلبهم من ذوي الأصول الغربية المسيحية: كان يجمعهم دافع نفسي غير مفهوم يدفعهم نحو التدين، تقابله حيرة عقلية نابعة من صعوبة تقبل التناقضات الواقعة في عقائد النصرانية المحرفة وتعاليمها تدفعهم إلى رفض الدين والتدين جملة وتفصيلا. لقد أكد لي أحدهم فكرة كانت قد انطبعت في ذهني منذ سمعت تصريحات البروفسور " مور " وهي أن العلم يوصل إلى نصف الطريق نحو اعتناق الإسلام .. وقد كان يوما يتحدث عن القراءات التي سبقت اعتناقه للإسلام فسألته: هل تعتقد أن ما يحوي القرآن من حقائق تطابقها مقررات العلوم الكونية هو الطريق الذي صار يوصل غير المسلمين اليوم إلى الإسلام؟ فقال: هناك أمران: الحقائق العلمية، وقدوة حسنة وخلق طيب يعكس الصورة الصحيحة للإسلام...

وعليه فإننا نخلص إلى أن العلم، إن لم يكن اليوم أهم شواهد الحق ومؤيداته فإنه لا ريب من أهمها، وهذه الأهمية لن يتمكن من التشكيك فيها أحد لأننا عرفناها على ألسنة من أوصلهم العلم إلى معرفة الحق وشهدناها في أحوالهم.

فإذا تقرر هذا، فلسائل أن يقول: ما الذي يمكن أن يؤيده العلم من حقائق الدين؟

ما يؤيده العلم من حقائق الدين: إننا إذا أمعنا النظر في ما يوصل إليه العلم مما يرتبط بالدين، وجدنا أنه يوصل إلى إدراك جملة من الأشياء هي:

أولا/ الإقرار بالألوهية: هناك مبدأ بسيط يدركه الخاص والعام، وهو أننا نتوصل إلى إدراك أشياء تغيب عن حواسنا من خلال إدراكنا لبعض آثارها، وعليه فلا يلزم من كون شيء يغيب عن حواسنا أنه غير موجود في الحقيقة. هذا المبدأ منطلق لإقرار كل ذي عقل مبصر أن من وراء هذا الكون المترامي الأطراف والقائم على نظام عجيب ودقة محيرة، بارئا وفاطرا عليما ومقتدرا... وقد عبر عن هذا المعنى بدوي في صورة بسيطة جمعت

كمال الحجة وبراعة المنطق حين قال:" الأثر يدل على المسير والبعرة تدل على البعير. وسماء ذات أبراج وأرض ذات أفجاج".

غير أن نظرة العالم -وإن كان يشترك مع سائر الناس في استدلاله بالمخلوق على الخالق- تختلف عن نظرة غيره؛ إذ هو أشد إدراكا لروعة النظام الذي يحكم هذا الكون في جميع أبعاده وهو لذلك أشد إدراكا لعظمة القدرة التي فطرته وأبدعته، ولعل ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم حين جعل العلماء أشد الناس خشية لله:{إنما يخشى الله من عباده العلماء}فاطر: 28.

وإنه خلافا لما قد يعتقد كثير من الناس، فإن سياق الآيات يوحي بأن العلماء المنصوص عليهم هم علماء الكون -الناظرون في الكتاب المنظور-:﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾فاطر:27-28. وإن كانت الآية تعطف عليهم بعد ذلك العلماء أهل النظر في الكتاب المسطور:﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ... ﴾فاطر: 29.

إذن فتقليب النظر في أجزاء هذا الكون هو الطريق الذي يجعل الإنسان يوقن بأن وراءه بارئا مقتدرا، وهو شيء التفت إليه أهل العلم والنظر على مر العصور واختلاف الدهور. وقد وجدنا القحطاني مثلا ينظم هذا المعنى في نونيته المشهورة بصورة لم يضاهي فيها جمال النظم إلا روعة المعنى:

أأحاط بالأرض المحيطة علمهم أم بالجبال الشمخ الأكنان
أم فجروا أنهارها وعيونها ماء به يروى صدى العطشان
أم أخرجوا أثمارها ونباتها والنخل ذات الطلع والقنوان
أم هل لهم علم بعد ثمارها أم باختلاف الطعم والألوان
الله أحكم خلق ذلك كله صنعا وأتقن أيما إتقان
قل للطبيب الفيلسوف بزعمه إن الطبيعة علمها ببرهاني
أين الطبيعة عند كونك مضغة في البطن إذ مشجت به الماءان
أترى الطبيعة صورتك مصورا بمسامع ونواظر وبنان

أترى الطبيعة أخرجتك منكسا من بطن أمك واهي الأركان
أم فجرت لك باللبان ثديها فرضعتها حتى مضى الحولان
أم صيرت في والديك محبة فهما بما يرضيك مغتبطان
يا فيلسوف لقد شغلت عن الهدى بالمنطق الرومي واليونان

فإذا تقرر ما ذكر، فقد يقول قائل: إذا كان العلم يوصل إلى الإقرار بأن وراء هذا الكون إلها فطره وبرأه، فما بال كثير من المعدودين في أكابر أهل العلم ملحدين ناسبين نشأة هذا الكون إلى الطبيعة والصدفة وما في معناها؟

والجواب عن ذلك هو أن الإنسان قد يملك عقلا حصيفا وبصرا ثاقبا يجعله إذا نظر في العلوم الكونية المتجردة عن الذاتية يسبق ويجيء بالعجب العجاب، غير أنه إذا تناول مسألة كمسألة الألوهية غلبته ذاتيته فانحرف بالمعاني الجلية إلى الظنون والتخرصات. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن الذين اختاروا الكفر لن يثنيهم عنه أن ينشق لهم القمر، وأنه لو نزل عليهم كتاب فلمسوه بأيديهم حتى تجتمع على تأييده حاستا السمع والبصر ما آمنوا ﴿ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾الأنعام، وأنه لو فتح لهم باب من السماء فصعدوا فيه لم يقروا:﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾الحجر، وأغرب من كل ذلك وأعجب أن القرآن الكريم يخبرنا أن قوما لو رأوا النار بأعينهم ثم أرجعوا إلى الدنيا لم يؤمنوا:﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾الأنعام.

وعليه فإنه يفترض أن يوصل العلم صاحبه إلى الإقرار بالألوهية متى كان منطلقا من منطلقات علمية بحتة مجردة عن الأهواء والميول وغيرها من الأشياء التي تحجب الرؤية والإبصار، فإذا تدخلت الأهواء والميول خرج العالم عن صفته إلى صورة تجعله قادرا على أن يعبد بقرة أو يسجد لفأر فضلا عن أن ينكر الألوهية.

ثانيا/ الإقرار بالوحدانية:إن تطور العلوم الكونية في جميع فروعها قد كشف لنا عن أمر خطير يتعمد بعض من يعلم التعتيم عليه وعدم الإشارة إليه، وهو أن هذا الكون على ما يبدو من تفاوت بين أجزائه تحكمه في الحقيقة قوانين واحدة، وتدبره سنن واحدة.

وأن النظام الذي يحكم الذرة هو نفسه الذي يحكم المجرة، وأن المادة التي تدخل في تركيب التراب أو الماء أو الهواء أو الإنسان أو الحيوان أو النبات أو النجوم أو الكواكب كلها مادة واحدة تتركب في مبدئها من الذرات ومكوناتها من الإلكترونات والبروتونات. وذلك يبرهن علميا على الحقيقة الكبرى وهو أن هذا الكون فاطره واحد متفرد في جلاله ..

وقد نص القرآن الكريم على هذه الحقيقة حين قرر أنه لو كان لهذا الكون أكثر من إله لفسد ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ الأنبياء. فلو كان لهذا الكون إلهان أو أكثر لتنازعوا خلقه ولحكم كل جزء منه نظام من إبداع صانعه يختلف عن نظام الجزء الذي صنعه إله غيره. فلما وجدنا نظاما واحدا يحكم جميع أجزائه -كما نطقت بذلك العلوم الكونية- لم يكن لكل ذي عقل إلا أن يعلم علم المستيقن أن لهذا الكون بارئا واحدا متفردا.

ثالثا/ الإقرار بصفتي العلم والقدرة: إننا نستنبط بعقولنا عادة بعض صفات الصانع من التأمل في الصنعة ولو لم يكتب لنا أبدا أن نعرف هذا الصانع؛ فلو تأملنا سيارة فاخرة من جملة ما نشاهد كل يوم في كل جانب، فإننا ندرك بصفة شبه آلية أن الذي صممها ليس صبيا من الصبية في حضانة من الحضانات، لأننا نعلم من غير أن نعرفه أنه شخص يمتلك علما -أعني علما بصناعة السيارات لا بالفقه والتفسير-. ثم لو جئنا بهذا الشخص ووضعناه في قسم بمدرسة من المدارس أو جامعة من الجامعات ثم طلبنا منه أن يصنع هذه السيارة لكان ذلك في نظر كل عاقل من جنس المستحيل. ذلك أن هذا الشخص لن يستطيع تحويل علمه إلى شيء ملموس إلا إذا ملك مادة يحولها وآلات وأدوات بالإضافة إلى جهد ووقت كافيين ... أو ما نسميه اختصارا القدرة. فنحن من غير أن نعرف صانع هذه السيارة معرفة مباشرة عرفنا بعض صفاته التي دلتنا عليه صنعته.

هذا المثل سنجد جميع الناس متفقين حوله -أعني كل من لديه قدر ولو بسيط من المنطق والعقلانية-. غير أننا إذا حاولنا نقل ذلك إلى ما هو أوضح وأصرح؛ أي هذا الكون المبني على نظام باهر، لوجدنا من ينازع في ذلك. وموضع الشاهد أن العلوم الكونية ما زالت تزيد المتبحرين فيها تعجبا وانبهارا بروعة النظام الذي يحكم هذا الكون ويضبط سيره مما يجعلهم أخبر الناس وأعرفهم بالعلم والقدرة التي أبدعته وبرأته، مع اشتراك جميع الناس في أصل إدراك دلائل علم باري هذا الكون وقدرته ﴿الله الذي خلقكم من ضعف

ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ الروم.

إذن فكلما تبحر المرء وغاص في مكونات هذا النظام البديع الذي بني عليه هذا الكون أيقن أن من وراء هذا الكون إلها بارئا، وأنه إله واحد متفرد، وأنه العليم القدير. ومن أيقن بذلك يكون قد عرف نصف الحقيقة، أما النصف الآخر فلن يحصل له إلا إذا أيقن بصدق رسالة الإسلام. فما دور العلوم الكونية في ذلك؟

رابعا/ الإقرار برسالة الإسلام: قد صار العلم اليوم من أعظم مؤيدات الإسلام، فبعد أن شهدت العصور المتأخرة تقدما علميا باهرا وكاد كثير من الناس يعتنق العلم دينا ويكفر بما سواه، ثاب الناس إلى رشدهم حين أيقنوا أن العلم لم يزدهم علما وإنما زادهم علما بجهلهم بتوسيعه لدائرة المجهول، وأنه لا غنى للعالم عن دين يهديه، ولكن لا يناقض علمه، وهو شرط لا يتوفر في اليهودية والمسيحية المحرفتين، ولذلك وجدنا أهل العلم والنظر يتوبون إلى الإسلام على ضعف أهله، مدفوعين إلى ذلك بما يأتي:

أ- عدم التصادم بين الإسلام والعلم: فعلى كون القرآن والسنة جاءت منذ أربعة عشر قرنا وهي فترة كفيلة ببيان زيف بل سخافة كثير من المعتقدات البشرية، إلا أن العلم لم يستطع أن يكتشف خطأ مهما كان بسيطا في النصوص الصحيحة والصريحة للكتاب والسنة -لا اجتهادات الناس فيها وفهمهم لها- ولم يجد الطاعنون متمسكا من مخالفة ما جاء في نصوص الوحي للعلم ولا حتى ما يوهم المخالفة غير أن الشمس كان يبدو لذي القرنين أنها {تغرب في عين حمئة} كما يبدو لمن يقف على شاطئ البحر أنها تغرب في مائه.

ب- تأييد كثير من الإشارات والتصريحات القرآنية لحوادث مكتشفات العلم -ما يسمى الإعجاز العلمي-، وهي كثيرة بحث فيها من بحث وألف فيها من ألف مثل الأستاذ محمد يسين قصاب في كتابه -باللغة الفرنسية- " سبحان الله أو الألف حقيقة علمية في القرآن"، أو يوسف الحاج أحمد في كتابه " موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة "، وغيرهما.

غير أنه من الواجب أن تلفت النظر إلى أن هذه الإشارات يجب التفريق فيها بين أنواع: النوع الأول: وهي الإشارات الصريحة التي دل عليها القرآن الكريم دلالة غير محتملة ودل عليها العلم دلالة قاطعة ومن أمثلتها ما يتعلق بخلق الإنسان في أطوار وهو

شيء دلت عليه أكثر من آية دلالة صريحة وشاهده العلم وشهد عليه. وهذا الذي يتعلق به مسمى الإعجاز العلمي حقا.

النوع الثاني: هو ما أيد العلم فيه تشريعات الوحي كتحريم الخمر والخنزير والميتة والزنا وسوأة قوم لوط وغيرها. ومن عجائبه ما توصل إليه بعض الباحثين اليوم من أن ذكر اسم الله على الذبائح يجعلها خالية من الجراثيم حيث شوهد مخبريا تكاثر الجراثيم في اللحوم التي ذبحت من غير أن يذكر عليها اسم الله بينما خلت لحوم الذبائح التي ذكر عليها اسم الله من تلك الجراثيم. وهذا لا يدخل ضمن الإعجاز العلمي إلا من قبيل التجوز فقط. والحق أنه من التأييد العلمي للقرآن والسنة لا من المعجزات.

النوع الثالث: ما تضمن إشارة لحقيقة علمية ولكن دلالته عليها محتملة وليست جازمة ومن أمثلته قوله تعالى:{والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون}الذاريات، فإن لفظ {موسعون} قد يكون وصفا للذات الإلهية. كما قد يكون وصفا لفعله –سبحانه وتعالى–. وهي لا تطابق النتيجة التي توصل إليها " لوماتر " من ابتعاد المجرات عن بعضها مما يؤدي إلى توسع السماء إلا بالمعنى الثاني الذي يجعله وصفا للفعل. وهذا مما يجب التثبت والتوقف في دلالته على المعنى إلا أن يترجح بمرجحات أخرى صونا للقرآن الكريم.

النوع الرابع: ما كانت المطابقة فيه بين النص القرآني والفكرة العلمية غير ظاهرة بل متكلفة. كمحاولة المطابقة بين مفهوم الذرة الكميائية والذرة المذكورة في القرآن الكريم مع أن استعمال هذا اللفظ في الدلالة على الذرة الكميائية دلالة اصطلاحية حادثة. وهذا مما يجب التحرز من إطلاق لفظ الإعجاز عليه –والله أعلم–.